أعلام الأدب

بين أرستوفان ويوريبيدز

للأستاذ دريني خشبة

ظل أرستوفان يدعو قومه إلى السلم وينفرهم من الحرب ، وظل يسخر من القادة المغرورين ويستهزئ بشكل الحكومة وديمقراطية الغوغاء ، فلم يزدد قومه إلا عناداً ، ولم تزدد جيوشهم إلا هزيمة ، ولم تزدد أثينا إلا فساداً واضمحلالاً . فلما يئس من دعوة السلام والتنديد بنظام الحكم انصرف عنهما آيساً ، وفرغ لأساتذه وعدوه يوريبيدز ، يقصر عليه نشاطه الأدبي ، ويصب عليه جام نقمته ، وما أورثه فشله في دعوة السلام من مرارة وغيظ

وقبل أن نخوض مع أرستوفان في هذه المعركة على نفر المسرح اليوناني لا نرى بداً من التمهل قليلاً لنلخص ملهاتين عظيمتين ألفهما الشاعر الساخر قبل الانقضاض على يوريبيدز ... أما إحداهما فمن أمتع ما نظم أرستوفان ، وأما الأخرى فهي أمتع وأعظم ما ألف طول حياته ، إلا إذا كان فيما ضاع من كوميدياته ما هو أعظم منها

ففي سنة ٤١١ ق . م أخرج أرستوفان ملهاته لِيسِسْتراتا ، وقد نظمها تنفيراً لقومه من الحرب ، وصيحة مضحكة في سبيل السلام ... ولا بد أن الأثينيين كانوا أمة من المجانين حين حاول

فهل يظن أنه سينجو من عواقب ما يصنع ؟

هل يتوهم أن التجني على الأدب العربي سيمر بلا اعتراض ولا تعقيب ؟

إنه لهذا الرجل صداقات مع كثير من الأدباء والناقدين ، وهو لذلك يرجو أن يصول ويجول بلا رقيب ولا حسيب

فما رأيه إذا أقنعناه بأن للأدب العربي أنصاراً يغارون عليه أشد الغيرة ، ويقفون لخصومه بالمرصاد ؟

ما رأيه إذا سددنا في وجهه جميع المسالك وقهرناه على الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية ؟

ما رأيه إذا فرضنا عليه أن يعود رجلاً يؤذيه أن يجانب المنطق والعقل ؟

« الحديث شجون »

زكي مبارك

أرستوفان أن يصرفهم عن آلامهم وما تترك الحرب في كل بيت من بيوتهم من مناحة تمزق القلوب وتفتت الكبود وتفجر المدامع ، ليضحكوا ملء أشداقهم من كوميديات مواطنهم المهرج العظيم !! لله كم كنا نتمنى لو لم يفقد ذلك الجزء الثمين من كتاب الشعر (Poetics) لأرسطو الذي تناول فيه فلسفة الكوميديا لنعرف رأيه في علة ازدهار الأدب الكوميدي في فترة حروب البليبونيز خاصة حتى بلغ أوجه بين أنين الجرحى وعبرات الثكالى وأحزان الموجوعين

يصور أرستوفان في ملهاته لسترا بطلةً حازمة تدعو إلى نبذ الحرب ونشر لواء السلم ، فما تزال بصويحباتها (نساء أثينا) تحضهن على ذلك وتكون منهن حزباً قوياً تنتهي إليه الغلبة في أثينا الديمقراطية ، فإذا احتج الرجال وأخذوا يناوئون حركة النساء اقترحت الزعيمة على توابعها حرمان الرجال من ممارسة (المسألة الزوجية ! !) حتى يفيئوا إلى الحق ويرجعوا عن هذه المجزرة التي تودي بأبنائهم وبأنفسهم في غير طائل . . وقد تعمدنا هنا أن نعكس ما أثبته أرستوفان في ملهاته ، فقد قصد أن تكون النساء نساء أسبرطة وهو في الحقيقة لم يعن غير نساء أثينا ... ثم تنتهي الكوميديا بخضوع رجال أسبرطة وجيشهم طائعين مختارين يطلبون الصلح من الأثينيين فتضع الحرب أوزارها ويكون السلام على الأرض (! !) وقد كان أرستوفان ماهراً في تلطيف عقدة ملهاته الفاجرة التي لا نحسب أنها كانت تخطر لأديب بال في سبيل وقف حرب المورة ، تلك الحرب التي استمرت تهلك الحرث والنسل ثلاثين عاماً طوالاً فكادت تكون بؤساً يونانية بل هي كانت شراً من بؤس الحرب ... فأي سلاح هو أمضى لوقف الحرب من إضراب النساء عن منح الرجال حق المباشرة الجنسية ! أليست الفكرة فكرة جريئة وإن تكن فاجرة داعرة ؟ لقد كان المسرح اليوناني الكوميدي يجيز ما هو أشنع من الليسستراتا أضعافاً مضاعفة ، وقد كان أرستوفان عفاً في ملهاته هذه إذا قيس بزميليه أمقيس وألكزيس اللذين كانا يحشدان في ملاهيهما ما لا يسمح قانوننا ولا عرفنا ولا أخلاقنا بعرض صورة منه ولا الخوض اليسير فيه .. ومع ذلك فقد كان أرستوفان لبقاً في التضحيك على نسائه وإن كان داعماً في جانبهن ضد الرجال ، وقد زاد في إشاعة الروح الكوميدي فيهن بجعلهن عزبيدات لا يعقدن مؤتمراتهن إلا حين تعبث الخمر بهن وتروي مشاشهن جميعاً

أما أبرع كوميدياته وأمتعها على الإطلاق فهي بلا شك (الطير)، وقد ألفها سنة ٤١٤ أي قبل لستراتا بثلاث سنوات فكانت آية آياته كلها حيث ارتفع بها إلى ذروة الفن الكوميدي وأشاع فيها المرح وجاق بينها وبين الواقع، وبناها على الكذبة الكبرى التي هي أساس الكوميدي اليوناني. وقد قلد فيها سوفوكليس من حيث سرعة العرض ونشاط الأداء والتنقل من مشهد إلى مشهد في خفة وتشوف، كما قلد فيها الشاعر الغنائي الخالد أوفيوس من حيث روعة الأغاني وجمالها وانسجامها وعلوها من مستوى الغناء الكوميدي الذي كان يقصد به إلى الشعبذة والتهريج لا إلى الفن الخالص الرفيع

استطاع اثنان من أهالي أثينا هما پيثتيروس وإيوليبيدز، أن يكتشفا حقيقة عجيبة لم تكن لتدور في روع أحد ولا تخطر يوماً في قلب بشر ... استطاعا أن يعرفا ما عرفه الشاعر سوفوكليس من قبل، وهو أن ملك الطير إيپويس هو نفسه الملك تيريوس ملك تراقيا(١)

(١) هكذا في مجموعة كوميديات أرستوفان طبعة هاشت ج١ لمترجمها جوكهام فرير وقد شاهد سنويارت وسوراي ص٢٨٦ إذ يذكران أنه كان ملك أثينا لا تراقيا ونحن نقتبس من فرير

من روائع الفكر

كان إبسن يقول: «الرجل القوي هو الفرد المستقل»

كان إبسن شديداً بهذه الكلمة. وما برحت أرى فيها دستوري الذي لا ينبغي أن أحيد عنه. فأنا كلما انطويت على نفسي واعتصمت ببرجها أعطتني كل ما أريد من قوة ومنعة. وكلما التمست ذلك عند الناس أو عند أصحاب الجاه والسلطان شعرت أنهم أضعف من أن يستطيعوا لي خيراً أو شراً. فليست قوتي للنشودة في ألقابهم ولا في ثرائهم، إنما هي في شيء ليس في مقدور أحد أن يمنحنيه غير نفسي. فالدولة لم تستطع ولن تستطيع أن تنقص أو تزيد في قوة قلبي أو رأيي، ولم تستطع ولن تستطيع أن تخفض أو ترفع من قدري وقيمتي في نظر الزمن والتاريخ. وهنا كل متعتي فأنا إذن لا أحتاج إلى الدولة في شيء، لأنها لا تستطيع أن تمنحني أو تمنحني شيئاً ذا أثر في كياني الحقيقي

هذا رأي الأستاذ العقاد أيضاً في كتابه عن «الدولة والأديب». وقد أشار إليّ فيها يفيد أني مخالف لرأيه. وهذا غير صحيح. فأنا يوم ذكرت الدولة في مقام الأدب لم أرد منها تشريف الأدب بحمايتها؛ فالأدب شريف بدونها وهي لا تستطيع له تشريفاً، إنما هو الذي يستطيع إذا أراد أن يشرفها وينوه بها. إنما أردت من الدولة أن تنظم بوسائلها المادية أسواق الأدب المادية كما تنظم بقية المرافق الحيوية الأخرى حتى يتطهر من السماسرة والمستغلين. إني أردت من الدولة أن تصون تتاجنا من جشع الطامعين كما تصون مال الأفراد من عدوان اللصوص. فلقد كان كل عجبي أن الدولة لا تعترف بمصالح الأدباء اعترافها بمصالح الأفراد، فهي تتركهم نهباً للناهبين حيث تقوم وتقعد إذا استبد تاجر بسوق الغلال، أو استولى مرابٍ على بعض المال!

ترفيه الحكيم

الذي كان يحكمها في سالف العصر والأوان قبل أن يُسْحر إلى هدهد وقبل أن يتربع على عرش الطير مزهواً بتاجه الجميل ومنقاره الطويل وألوانه المتلألئة الحسناء... ولما كان پيثتيروس مواطناً منبوذاً من قومه الأثينيين فقد اعتزم الرحلة إلى مملكة الطير ليجرب فيها حظه غير مستعين بأحد إلا بنفسه وزميله المغفل المطواع إيوليبيدز... هذا وقد كان پيثتيروس رجلاً مقداماً مقاحماً قوي الجدل حاضر البرهان نافذ الحجة لا يسيء أن يقنع عدوه بالشيء وضده في وقت معاً. وكان يرى الرأي فيصيب به الحقيقة دائماً ولذلك كان قلما يرضيه تصرف الآخرين خصوصاً في شئون الحكم

أما إيپويس الهدهد ملك الطير، أو تيريوس ملك تراقيا في سالف العصر والأوان، فملك عادل محبوب من رعيته المخلصة له، وهي رعية بُدائية ما تزال تحبو في أول مدارج المدنية، ولذلك فهو دائب على النهوض بها وإصلاح حالها، ولذلك أيضاً يرحب دائماً بكل من يرد عليه من رعايا الدول المتمدينة الأخرى... وقد أكرم مثوى پيثتيروس لهذا السبب، واستطاع پيثتيروس

أن تقنعه بوجهة نظره فى تكوين دولة تحت سيطرته بحيث ينضوى تحت لوائها البشر ، وما كادت رعية الطير تسمع بهذا حتى ثارت ثائرتها وهددت الملك بالتمرد وإضرام نار الفتنة، للضغينة القديمة بينها وبين بنى آدم ولعدم ثقتها فيهم من قديم الزمان . وقد همت الطير بالفتنة فعلاً ، لكن پيتيروس ألقى فيهن خطبة طنانة رنانة ساد بها الموقف وأنفذ بها مشروعه من الفشل

وأنشئت الدولة برياسة ملك الطير ، وأقامت الرعية المتاريس على الطريق إلى مملكة السماء ، فانقطعت السبل بين الآلهة وبين الأرض ، ولم تقو أرباب الأولمب على إخضاع الطير فاضطرت أن ترسل سفارة من ثلاثيون إله البحار وهرقل الحديدى إله الرياضة وتريبول الإله البربرى الجاهل الفتاك الفتاف (!) وقد اضطرت الآلهة إلى إرسال هـذه السفارة بعد قبض الطير على إيريس (قوس قزح) مبعوثة حيرا وجاسوستها حين اجتازت بغير حق المتراس الفاصل بين مملكة الطير وطريق الآلهة إلى السماء ...

وقبل أن يصل أعضاء السفارة تنزل الإله پرومثيوس — حامى البشرية وتصير الإنسان — مختالاً تحت مظلة كبيرة بين سمع زيوس كبير الآلهة وبصره ، ليؤيد پيتيروس بحجته وليمنحه البركة والتوفيق فى مجادلته سفراء السماء ... وقد استطاع پيتيروس أن أن يخدع هرقل بأكلة شهية أعدها له فضمه إلى جانبه ، وكان هرقل يسيطر على صاحبه تريبول الجاهل البربرى الفتاك، وبذلك أصبحت الأغلبية فى جانب پيتيروس ، وغلب ثيون على أمره ، وعقدت معاهدة بين الفريقين فاز فيها پيتيروس بأقصى ما كان يصبو إليه من تفوق وسيطرة ، فقد رضى سيد الأولمب — زيوس الكبير المتعال ! — أن ينزل طائعاً مختاراً عن صولجان ملك الدنيا (الأرض) إلى الأبد لأيوبس الهدهد ملك الطير كما قبل أن يزوج ابنته الخالدة الفتانة (باسيليا [1]) لپيتيروس

وفى الكوميديا شخصيات مضحكة أخرى لا يتسع هذا الملخص السريع لعرضها . وأهم ما يلفت النظر تعقيباً على ملهاة الطير هو روح الإلحاد والسخرية بالآلهة الشائعين فيها ، وهو روح عجيب يدلنا على ما بلغته أثينا من الحرية الفكرية والتحلل من ربقة دينها الأسطورى بحيث لم يتحرج أرستوفان من الضحك على أرباب الأولمب إلى هذا الحد المضحك

ثم فرح أرستوفان لفخر شعراء الدوام ، بل لفخر أثينا القديمة ، پوريبيدز العظيم ، فنال منه ما لم ينل منه شىء آخر ، وشمخ عليه شمخات أضحكت خصومه حيث ألف فيه ملهاته الفاجرة الشنيعة الـ (Thesmophoriazusae) ، أو محاكمة پوريبيدز كما يسميها المتأخرون والاسم مشتق من Thesmophoria (ثسموفوريا) وهو عيد من أعياد اليونان القديمة كانت السيدات يقمنه فى أكتوبر من كل سنة تقديساً لربة الزراعة والمدنية سيرس (أودمتير) ، ولم يكن يسمح للرجال ولا للذكور بوجه عام فى حضوره ... وقد ألفها سنة ٤١١ أى فى نفس السنة التى ألف فيها الليسيستراتا ، ولذلك جاء فيها أثر من سابقتها ...

نمى إلى پوريبيدز أن الأثينيات المحتفلات بعيد سيرس فى الـ(ثسموفوريا) سيثرن قضيته معهن لطول ما شن عليهن الغارة فى دراماته ولجرأته على الجنس اللطيف بإبرازه على المسرح ، وتناول ما لم يكن ينبغى تناوله من أسرارة أمام الناس . وخوضه فى شئون الحب والعشق والغرام المحرم من غير ما تورع ولا استحياء ولا مراعاة للعرف ، ولا إبقاء على سنن السلف الصالح . وبلغه أيضاً أنهن سيصدرن عليه حكماً صارماً عسى أن يكون له فيه مرتدع ... خاف پوريبيدز واشتدت خشيته ووقع فى حيص بيص (١١) ، ولم يدر ماذا يصنع ؛ ثم بدا له أن يستعين بشاعر عنت (١١) جميل الطلعة مشرق المحيا يمكن أن يتنكر فى زى النساء ، ويذهب إلى الـ (ثسموفوريا) ويختلط بالنساء حتى إذا شرعن فى فحص قضية پوريبيدز تولى هو الدفاع عنه بكل ما أوتى من ذلاقة وزشاقة وبيان ... لكن الشاعر أجاثون يرفض ما يعرضه عليه پوريبيدز من وجوه الإغراء والإغواء فيضرب پوريبيدز أخماساً لأسداس ، ثم يبدو له فجأة أن يذهب إلى والد زوجته (كَمْشِه) — مندلوخوس — فيرجوه أن يتنكر هو فى زى امرأة ثم ينطلق إلى مكان الاحتفال فيتولى الدفاع عن زوج ابنته وإلا وقعت الواقعة وحاقت به البلايا ... ويقبل حموه ، ثم يذهب إلى الـ (ثسموفوريا) وما يكاد يتكلم حتى يشك النساء فى أمره ، حتى إذا تضاعف ريبهن هجمن عليه واكتشفن أنه رجل وأنه حمو پوريبيدز ... ويسقط فى يد الرجل ، ويهرب منهن لائذاً بالذبح ، حتى إذا ضيقن عليه الخناق وأوشكن يبطشن به انقض على أحد أطفالهن فاحتمله بكلتا يديه وراح يهددهن بقتل الغلام إذا مسه بسوء ... ويختلط حابل النساء بنابلهن ، ثم يكتشفن أن الذى يحمله الرجل ليس غلاماً ،

(١) تحل باسيليا الملكة أو الملك

بل هو دن خمر منطى بثوب ، فيثرن من جديد ويوشكن أن يوقعن به ... وهنا يظهر يوريبيدز نفسه ولكن متنكراً فى أشكال شتى ، فتارة يبدو كأنه مناوس حينما يكتشف أمر زوجته هيلين فى مصر ؛ ثم يبدو فى صورة الفتاة إيخو (الصدى) وهى تساعد الفتاة أندروميدا المصفدة فى حَيْد الجبل ... ويبدو مرة ثالثة فى شكل پرسيوس وهو يفك أصفاد أندروميدا ... ثم يفلح يوريبيدز آخر الأمر فى إطلاق سراح حتفه بعد أن نجح النساء فى تصفيده فى قفص المجرمين ، وذلك بأخذه صورة قوّادة (هكذا !!) وذهابه مباشرة إلى الضابط الذى عهد إليه بالرجل ليحرسه ... وتأخذ القوادة فى الرقص وهز الردف والأمداء والابتسامات الخليعة الفاجرة حتى تزلزل فؤاد الضابط وتغويه فيطلق سراح منسيلوخوس(١)

هذه هى الكوميديا الثائنة التى طعن بها أرستوفان خصمه العظيم يوريبيدز ، وقد حاول فيها استعمال طرائق شاعر الدرام الكبير ووسائله فى التعبير والأداء .. وقد استطاع بها أن يثير حنق يوريبيدز وأن يحيل بقاءه فى أثينا إلى مرارة وتلدد وبرم بالناس وبالحياة ... وقد ألف أرستوفان فى خصمه غير هذه الملهاة شيئاً كثيراً ضاع أكثره لحسن حظ الأدب — أو لسوئه ، لاندرى ! — فلما مات يوريبيدز سنة ٤٠٦ ق . م ، ألف أرستوفان ملهاته الخالدة (الضفدع) سنة ٤٠٥ التى تسمو إلى أفق (الطير) والتى عرض فيها ألواناً جديدة من الخيال وجمال التصور ، وأطلق (لتفننه !) عنانه ، فاستحق التخليد برغم رجعيته وجهله أحياناً ... وقد سبق أرستوفان فى هذه الملهاة إلى ابتكار النقد الأدبي المبنى على القواعد والقوانين ، بل هو قد وضع الكثير من قواعد النقد فى موازنته بين إسخيلوس ويوريبيدز فى حوارها الشائق اللذيذ الذى اشترك فيه الإله باخوس

حزن الإله باخوس حزناً شديداً حين افتقد شعراء الدرام بعد سوفوكليس ويوريبيدز اللذين ماتا فى عام واحد فلم يجد من يسد فراغهما ، ولذلك اعتزم الرحلة إلى الدار الآخرة (هيدز) كما صنع هرقل من قبل عسى أن يرد منها يوريبيدز كما رد هرقل ألستيس ؛ ويبدو باخوس فى جلد أسد وقد تزيى بزى هرقل وحمل عصا غليظة مثل عصاه ، وإن يكن مع ذاك يبدو فى صورة مخنثة كدأبه دائماً — ثم يكون إلى جانبه عبده — أو خادمه — إكسانثياس — وقد علا ظهرة جحش وحمل على كتفه عكازة طويلة (شورخاً !) علق فيها (غلاته) وحقائبه وكل ما يلزم فى مثل هذه الرحلة الطويلة الشاقة من زاد وماء ونحوهما ... وقد علق هذه الأشياء فى طرف العكازة حتى (تحفظ الموازنة) معه ... فى المشهد الأول الذى يشك المؤرخون فى أن يكون كذلك (أى فى أن يكون هو المشهد الأول لأن الملهاة غير مرتبة وقد ضاعت بعض جذاذات منها) نسمع أصواتاً من التنادر (التنبيط !) يتقاذف بها شبراء — أو شويعرون — يجتهد كل منهم أن ينال رضا النظارة بإتقان التهريج وإجادة (التنكيت !) وقد وقف بينهم باخوس — بوصفه حامى مسرح الدرام ! — كالصنم لا يحير .. ثم ينتهى المشهد بنقاش سوفسطائى بين باخوس وخادمه ... ويهبطان إلى هيدز ، ويلتقى أرستوفان فى إنهاض الموتى لتكلم الزائرين ، ثم يأتى أروع مشاهد الملهاة وهو هذا الحوار الأدبي الرائع بين إسخيلوس ويوريبيدز من حيث منهاج كل منهما فى الشعر ووجهة نظره فى الأدب — وهنا لا يستطيع أرستوفان إخفاء غله على يوريبيدز ، بل يختم المشهد بنصرة إسخيلوس (الذى كان يمثل الفضيلة الأثينية والرجولة اليونانية ، والشجاعة والإقدام ... لا هذا الأحمق يوريبيدز الذى هو سبب فساد روح العصر ، وأصل خراب الأخلاق !) ... ثم تنتهى الملهاة بطرد يوريبيدز ليستقر فى مثواه السحيق من هيدز وقد رهقت وجهه قترة !

والمدهش فى هذه الملهاة العجيبة هو قياسها على النقد الأدبى البحت ، وهو وإن يكن نقداً بدائياً إلا أن الملاحظات التى ألحقنا بها أرستوفان تجعلنا نعجب كيف كان الجمهور الأثينى فى هذا العصر يسيغ مثل هذا الحوار الذى هو فوق أفهامه ، بل يضحك له ويغرق فى الضحك ! ثم كيف يحدث هذا ، وقد كانت أثينا على شفا الهاوية ؟ ألم تدخلها جيوش اسبرطة بعد هذه الملهاة بسنة واحدة ؟ !

إن ضحك الأثينيين هكذا على نفر شعرائهم يوريبيدز هو آية انحلالهم وانقضاء دولتهم ... وقد حصل !

دريني خشبة

(١) التلخيص عن ترجمة وم جيمس هيكي لملحمة دانت رقم ٥١٦ .